قصة قصيرة

أدرب نفسي على الجنون

محمد سعدون السباعي

أجاهد، بكامل طاقتي الذهنية أن أُركز على يديّ الراجفتين دون سواهما، وأنا أجمع أوراق المعاملات إلى بعضها، محاولاً أن لا تتبعثر على الأرض فأتحول إلى هدفٍ سهل للسخرية. وهذا ما يجعل المعاملات تتراكم أمامي، أو أدفعها ناقصة، فأشعر لذلك بالحزن والتعاسة والعار سواء من نفسي أو من المراجعين والموظفين وكذلك من رئيسي في العمل الذي كان قد منحني، قبل أن أصاب بالتحولات العصبية الأخيرة، كتاب شكر بناءً على «روحي العالية في تقبل النقد وتجاوز الأخطاء». أما وقد ساءت أموري الوظيفية بالشكل الذي لا يمكن السكوت عليه، كما صرح، بهمسٍ أو بصوت مسموع الكثير من الموظفين، فقد استدعاني رئيسي.

حدق بوجهي ملياً وهز رأسه بشيء من الأسف. وقد ظهر في عينيه ما يشبه اللوم! وكلام مثل:

«لا باس، سيجيء دورنا نحن!».

ثم أوصىٰ بمنحي اجازة لأسبوع كامل، ونصحني أن أتدبر أمري. وبناءً على توسلات زوجتي وأهلي وإلحاح البعض من الأصدقاء، فقد استشرتُ طبيباً مختصاً في الحالات النفسية والعصبية.

قاس نبضي وضغطي وحرارتي.. حدّق في لساني وداخل أجفاني، وضغط برفق على أظفاري وطرق، بمطرقةٍ من المطاط، على مفاصلي، ثم سألني سؤال الأطباء التقليدي:

ـ «ما الذي تشكو منه»؟.

وبما أن أسباب قضيتي بسيطة وواضحة، هكذا خُيل لي، فقد ارتخيتُ بمقعدي، وكان واسعاً مبطناً بقطيفةٍ خضراء زاهية.

قبل أن أدخل في التفاصيل، أشرتُ عليه أن يطرح سماعة هاتفه جانباً. لعلني كنتُ بطلبي الساذج هذا، فرجل في مثل وظيفته ـ بمدينة واسعةٍ ملأى بمرضىٰ الأعصاب، بدليل العدد الهائل منهم المركوم كالأسلاب في غرف الانتظار الضيقة الذي كنتُ أشاهده خلال مراجعاتي المتكررة لسكرتيرته قبل أن أفوز بموعدي هذا من أين له الوقت لسماع شكواي إلى آخرها! أقول. لعلني كنتُ شغوفاً بأن أحكي قضيتي بإسهابٍ، بنفسٍ واحد. أحكيها وأتخلص منها إلى الأبد!

ابتسم بوجهي. وفعل ما طلبته. زادني تجاوبه بمثل هذه السرعة والبساطة ثقة بما ستؤول إليه أموري، فتلك بادرة جيدة ومشجعة من طبيب نفساني. «في الليلة التي سبقت مرضي تعشيتُ طعاماً كالذي يعتاش عليه تسعة أعشار سكان المدينة: خبزاً وباذنجاناً مقلياً وشاياً ثقيلاً. تجشأتُ لكني لم أذكر الله بالشكر فأبي يكفينا جميعاً في مثل هذه الأمور. شاهدتُ في التلفاز أغنيةً خفيفة وإعلانات عن اليانصيب والحلويات وأثاثاً يباع للأعراس دون سن العشرين، بالتقسيط. ثم حلقة من المسلسل اليومي ـ دخان البنادق ـ. كان الدخان من الكثرة بحيث فتحتُ شبابيك الغرفة على مصاريعها بالرغم من برودة الجو.

حولتُ جهاز التقاط الارسال على قنال مدينة مجاورة. كان الثراء هناك واضحاً ومؤكداً. أنهم لا يعلنون عن الأشياء

الصغيرة والمتواضعة كالتي يعرضها تلفاز مدينتي. مشغولون بأشياء المدن الكبرىٰ الثرية كالبورصة وسباقات الخيل والسيارات والسفرات على اليخوت التي تشبه القصور الصغيرة العائمة. فجأة صرختْ طفلتي متخلصة من أحضان أمها، حين ظهرت دعاية عن حليب «نيدو» يفوّم داخل أقداح زجاجية طويلة، وركضتْ صوب زجاجة التلفاز فاتحة فمها الصغير بشراهة غريبة. أسمكنا بها وضحكنا، كما لو أننا لم نضحك في حياتنا من قبل. ولأول مرة عرفنا أن الافراط في الضحك يكسو الوجوه، في الأخير بمسحةٍ شبيهة بمسحة البكاء!

أطفأنا الجهاز ونهضنا، بالتناوب، نتبول استعداداً للنوم.

أعترف لعلها تفاصيل عادية وغير ذات أهمية لأحد. غير أنني أذكرها بأمانة المريض التواق إلى علاج ناجع، إذ لعل فيها ما يسهل على الطبيب تشخيص حالتي. وحلمتُ ليلتها: «أنني أقف في قاعة معبأة برائحة القِدم. مكعبة وواسعة بعدة أبواب متداخلة. ثمة رجل نحيل ببدلة داكنة ولحية مدورة كالحال عند سكنة الصحراء. كان منهمكاً بقراءة ورقة صغيرة بواسطة عدسة مكبرة.

أثارني العدد الهائل من أجهزة التلفون المرصوفة كالسلاحف، بكل الألوان، وبمختلف التصاميم، على امتداد مكتبه الضخم وعلى مناضد صغيرة من الزجاج المنقوش، خلفه ومن حواليه والبعض الآخر على الأرض. كانت التلفونات من الكثرة والتنوع بحيث أيقنتُ، دون أن يقول لي أحد، أن كل ما يدور في المدينة، الشوارع والبيوت ومخادع النوم وأماكن التسلية البريئة بمتناول يده.

كان يقرأ بالمكبرة ويرد على المكالمات حاملاً الأجهزة على كتفيه وخلف أذنيه وبين أصابعه في آن واحد. منظر مهيب، لكائن ذي مهارة مدهشة حقاً!. وللحال تذكرتُ كيف كنا قد ضحكنا تلك الضحكة البريئة والسخيفة معاً على طفلتي حين هبت راكضة صوب أقداح الحليب. وكيف كنتُ قد تذمرتُ قبل ذلك من رائحة الباذنجان المقلي وطعمه. وقلتُ: «من المؤكد أنه قد أحيط علماً بكل ذلك». وسمعتُ قلبي يدق.. يدق في أُذنيّ. وتذكرتُ أهلي وكيف أنهم بدورهم كانوا قد ضحكوا معي وتذمر بعضهم من الباذنجان المقلي. وقلتُ: «سأجدهم أمامي!» وشعرتُ برعدة هائلة ترجني. وبشيء مكتوم لا تسعه حنجرتي أشبه بالصرخة أو الاختناق المفاجيء.

قربوني منه إذ دفعوني دفعاً إليه وذلك بشيء من اللطف لكنني أحسستُ بشيء ما ينخس في لحم ظهري، أظافر رؤوس حراب فوهات مسدسات أو شيء من هذا القبيل. بل لعلهم لم يفعلوا شيئاً رديئاً، وأن ذلك كان مجرد خيالات أوحتها جلالة المكان وبلبلة ذهن متطير إذ رأيته يترك الورقة والعدسة المكبرة والتلفونات المعلقة حول رقبته تسقط ويتقدم نحوي.

كان يبدو عليه مظهر من أرهق نفسه، دونما رحمة، في عمل لا طائل من ورائه!

فتح عيني وبصق فيهما.. فتح فمي وبصق بداخله.. قرب وجهي إليه أكثر وبصق على ناصيتي وانسحب مثلما تقدم دون جلبة أو انفعال من أي نوع لدرجة خُيل إليّ أنه إنما يقوم بطقوس روتينية مسلية، حتىٰ انني فكرتُ بأن أضحك وأشكره واعتذر لما سببته له من مضايقة ومضيعة للوقت. وبينما كنتُ أفكر في مثل هذه الأمور. وأنهم سيطلقون سراحي، فقد أخذت عقوبتي ودون أن أجرؤ على مسح البصاق من على وجهي إذ قد يفسر عمل كهذا لغير صالحي! أطبقوا عليّ واقتادوني إلى الخارج عبر ممر أرضي يربط القاعة بقاعاتٍ أخرىٰ وكراجات وغرف منام مستطيلة أشبه بالثكنات العسكرية. وضعوني داخل سيارة من سيارات السباق، كانت متجهة إلى غرب المدينة. كان الوقتُ ظهراً، لعلها الساعة الثالثة ـ لا ساعة لديّ فقد أخذوها مع جملة أشياء كنتُ أحملها في جيوبي قبل إدخالي إلى القاعة ـ كانت السيارة تسير بسرعة ألف كيلومتر! وسط ظهيرة قائظة في مفازة صحراوية مهلكة. ولم يكن باستطاعتي أن أرىٰ غير كثبان الرمال وهي تتداعىٰ إلى الوراء مثل حرائق صغيرة، أو أن أسمع غير صوت محرك السيارة المندفعة بعمىٰ وشراسة وهو يجأر معبراً عن متانة لا حدود لها!

رفعتُ يدي محاولاً، قدر الامكان، تجنيب وجهي من شظايا الشمس اللاسعة. لكن أحدهم أنزلها بطريقة لم أفكر بعدها بتكرار المحاولة!

كانوا قد تركوني هناك في قعر السيارة الساخن أحتقن وأتعرق بمنامتي الصيفية، انني قلتُ في نفسي «لا بأس بهم!».

فجأة أشاروا للسائق، اشارة متفقاً عليها. ضغط على الفرامل بقوة فجأر المحرك بدوي قبل أن تتوقف السيارة مرتجة بحمولتها من البشر. أنزلوني وأوقفوني بمواجهة الشمس.

ثمة سيارات كثيرة كانت تأتي من جميع الاتجاهات بذات السرعة: ألف كيلومتر في الساعة. وتتوقف بنفس الدوي في المنطقة. وعلى وجوه سائقيها علامات البراعة. يهبط منها أشخاص بمعنويات مختلفة. يقدم لهم حراسهم أنابيبَ اسطوانية من مادة خفيفة ولماعة. ترن أصوات الأنابيب وهي ترتطم بالأرض برنين موحش مختلط بعويل ريح السهوب. البعض يتلقفها بمرح ويدخل فيهب بسهولة لا تصدق! ومنهم من يحاول مرة، مرتين ويفلح. وثالث ما إن يبصقوا في وجهه حتىٰ يدخل فيها بشيء من العسر الواضح، غير أنه، في الأخير، يدخل، وهذا هو المهم.

جاءوا بأنبوبٍ. كان فارغاً. خفيفاً يكاد يسقط من الأيدي لنعومته. وكان قطره، كما بدا لي، أصغر من أن يتسع لرأس مثل رأسي. لكنهم ألحوا، كعادتهم دائماً. حاولت لكن دون جدوىٰ.

أوقفوني على ساق واحدةٍ ومروا أمامي برتلٍ باصقين.

ـ «سنعيدك قرداً تنبش القمامات في الشوارع».

ولك أن تتصور هلعي. تسلخت أذناي وجوانب رأسي. أضحكهم منظري. ودفعهم إلى تكرار فعلتهم الوحيدة: الضحك والبصق والنذير. وفي الأخير وقد أعياهم الأمر كما أعياني، صفعني أحدهم على وجهي بلطمة هشمت الشمس في عينيّ.

الغريب أنني لم أشعر بألم ما للصفعة. كان مجرد صوت أشبه برشق حفنة من الحصىٰ الناعم على لوح زجاجي سميك. ثم دفعني أحدهم فسقطتُ على الرمال بجانب الأنبوب. ومرة أخرىٰ أحسستُ كأن الأمر لا يعنيني! لم أكن مذعوراً ولا حاقداً ولا مصدوماً ولا بأية صفة من صفات الخيبة الانسانية. جسد مكوم وإلى جانبه انبوب أصم يلمع.

ـ سنجعل منكَ أفضل من يجيد الرقص بين جراء السيرك.

إنهم يتحدثون عن ايجاد نوع جديد من البشر، وبقليل من ضروب المعرفة البشرية المتطورة التي يبدو أنهم يمتلكونها، سيجعلون منه كائناً فائق الرخاء بشرط أن يكون، بالمقابل، فائق الطاعة.

كانت السيارات الأخرىٰ قد عاد معظمها إلى المدينة بأحمالها المعبأة بالانابيب تصفق وتزغرد.

استيقظتُ. ثمة دخان أزرق خفيف يطفو في جو غرفتي. دعكتُ عيني. نهضتُ فشعرتُ بدوار بسيط: «إنني لم أسكر البارحة. ولم أتناول حبوبي المنومة، فقد كنتُ أسهر بجانب جثمان شقيقي الوحيد، كانت الطلقة قد اخترقته من منطقة القلب. ومن يومها وأنا أشعر أنني مطارد داخل طرقات مقفلة. وبقدر ما أود الناس أخشى أن يأتي موتي على أيديهم. ثمة أشباح مهولة غوريلات بشعرها الأسود الخشن.. سراطين بحرية شرسة أسمع هسهسة أقدامها النملية وخطف زعانفها الصافر تترصدني عند المنعطفات.. تسير خلفي، وأيديها داخل جيوبها، تخطفني على مرأى من الناس، أو من فراشي وتهرب بي إلى عالم من القاعات المضاءة أو المظلمة. قاعات مكتظة بما يشبه المحاكمات الخطيرة والتي لا تريد أن تأخذ لها قسطاً، ولو بسيطاً، من الراحة وأخرى هامدة مهجورة وكأنها قد دارت فيها معارك. أصل اليها مسحوباً بالاغلال. عبر ممرات ودهاليز وانفاق تدور على نفسها بسلالم صاعدة أو هابطة محروسة من قبل أشخاص جاهمين شاكي الحراب يمخطون داخل أيديهم ويتبولون على الحيطان. فتصبح، إزاء هذا العالم الجديد، جميع مهاراتي التي كانت مشغولة بعماها الذاتي وقدراتها الخارقة في المناقشات والملاسنة الكلامية ضرباً من السخف واللغو وخيانة النفس. ولكن كل شيء قد فات وما تبقىٰ بين جنبيّ ليس سوىٰ زوبعة من الخجل!

زوجتي امرأة لا أعرفها. وأبواي من صخر. طفلتي وحدها تضع يدها على رأسي وتجلس كالطير البردان في حضني.

(بقيتُ في أمل أن يزول هذا الذي لا يمكن تسميته) فقد كنتُ حتىٰ قبل ثلاثة أيام أعتقد أنه سيزول في أية لحظة، لأنه ببساطة، خطر بلا جذور! شيء مثل الحلم، لم يكن كابوساً، بل مجرد حلم ناءٍ ومضطرب وفطري. من الممكن أن يكون قد ولد معي إلا أن أعراضه لم تظهر طيلة عمري البالغ الآن أربعين عاماً إلا في هذه الأيام: حر ودخان وغرف بنوافذ صغيرة.. خمر رديء وأغانٍ مكررة! مناكدة في العمل ومناكدة في البيت ومناكدة مع النفس، والانسان لا يمتلك حكمة الطير إذا سقط الجليد! وهكذا كانت المسألة وما زالت تبدو لي: مجرد حلم سأصحو منه غداً أو بعد غدٍ، وربما الآن أو في اللحظة التالية. أما وأنه لا يريد أن يتركني، حينها أيقنتُ أن له جذوره. لكن ليست بالجذور البعيدة كما يتصور البعض، فأجدادي، وإن كانت لهم مشاكلهم، إلا أنهم كانوا يلجأون، في بحر اسبوع من الزمان إلى حسمها بالقتال

المباشر، وهذا أفضل: قاتل أو مقتول».

تحرك الطبيب في مقعده، وتثاءب. فكان عليّ أن أسرع، أختصر وأترك أفكاراً عديدة قد تشتت، في ذهنه، الحالة التي أناضل في تجسيدها لديه.

«روحي تهوى الأشجار والأنهار والبارات المفتوحة، مع صديق يحكي لك فتضحك، وتحكي له فيبكي، وقد خشبني الجلوس في البيت، فعمدت إلى شراء نظارة داكنة. أنا أكره الألوان الداكنة، لكن ماذا بيدي؟ فقد توصلتُ، بعد مناقشات مستفيضة مع نفسي إلى أن التجوال في الشوارع والتسكع على الجسور وداخل الانفاق، والاتكاء على حائط ما ومراقبة الناس وهي تركض بأحمالها، أو وهي تتشاجر بالمدى والحجارة أو وهي تسرق مطمئنة وشامخة إلى عواقب فعلها وإن كان ذلك يجري من خلال نظارة داكنة، لكنه، على أية حال، أجدىٰ بكثير من مجرد الجلوس داخل البيت وتسليم روحي للمناكدة وخيالات القاعات بأصدائها وحكامها وحراسها التي تداهمني عند النوم! لا سيما وأن الانسان الذكي يعرف أنه لا يملك أكثر من روحٍ واحدة، مهما كانت جلادتها فهي مهيأة للاصابة، في أية لحظة، بالشيخوخة أو القنوط».

كان الطبيب مصغياً، وقد جعلته بعض جملي لعلها الأخيرة منها بالذات يتأرجح بمقعده الهزاز، يستنشق دخان غليونه المعطر ويبتسم.

مما شجعني على الاستمرار بالحديث ناسياً أن المزيد منه قد يُفسد كل شيء! «قبل أن يحين موعد مقابلتي وإياك، وكعادتي في هذه الأيام، فقد درتُ في السوق طويلاً. حدقت، بكل فضولي، في كل الأشياء، توقفتُ عند اكشاك الجبن والصحف والبهارات، وعند مداخل البارات والسينمات والنوادي الليلية ومجمعات الدجاج. مررت بالمسلخ العام، ثمة أكوام من الأمعاء لم تفرغ محتوياتها بعد، مطروحة للبيع على الوحول قبالة الحوانيت الضاجة بمكائن التقطيع واللغط والذباب. لطالما أثارتني خمرتنا الوطنية بمزتها: الجاجيك المثوّم. وقد سمحتُ لنفسي بأن أتناول ثلاثة أقداح منها. وأعتقد أن عملاً صغيراً ومسلياً مثل هذا لن يغضبك! لم يعجبني منظر الدجاج في أقفاص الجريد الضيقة وهو يدوس، بهمة عجيبة، على بعضه ويتواطأ ويقأقىء ويقفز، البعض منه، فارداً جناحيه مثل من يتمثل الطيران أو الرقص في فضاءات لا وجود لها.

نظرتُ إلى ساعتي فوجدت أن موعدي معك قد اقترب، فتركتُ كل شيء وحضرتُ».

وشاهدتُ الطبيب ينتر يده بوجهي مثل من يصيح: «اخرس!»

ولعله كان قد قالها فعلاً دون أن أسمعها، إذ كان صوتي، في المقطع الأخير «على ما يبدو، عالياً.

إذن، لقد وقع ما كنتُ أجهله. لقد خربت، وإلى الأبد، بمهاراتي الكلامية المختصة بعرض المظالم والرؤىٰ الكابوسية دون غيرها، الألفة التي بدأت أكسبها، في الأخير، مع طبيبي! لكن وبالرغم من هذا كانت ثمة أمور أخرىٰ عديدة قد بدأت تنتظم في ذاكرتي على شكل رؤىٰ ومشاهد، حقيقية أو حلمية لعلها تفوق في أهميتها التشخيصية لحالتي، كل ما سبق وذكرته.

وتلبستني، من جديد، حمىٰ حالة المهارة الكلامية، وحين شرعتُ بسردها، فجأة دخلت السكرتيرة واقتادتني بوداعة سكرتيرات الرجال المهمّين. ولم أمانع.

- الطبيب يوصيك أن تأخذ تمارين في الضحك والابتسام. لقد احتفظ بنظاراتك كشاهد إثبات على أنك قد ساهمت بارتدائها في تردي حالتك المعنوية. ثم إنه يقول إنك تبالغ في مسألة القاعات هذه.. ابتسم يا أخي.

قالتها بلهجة التوبيخ، وتابعت، وقد بدت تفقد وداعتها:

«يا إلهي، أي نوع من البشر أنت؟ كنتُ أستمع إلى صراخك وأنتَ تتحدث عن قاعاتك الموهومة، لقد أرعبتنا!».

وكانت قد فتحت الباب لحروجي. ولمحتُ يدها ترتعش على مقبض الباب، ارتعاشة يديّ ذاتهما، وقد كست وجهها علامات من يشرع بالصراخ.

بغداد